شعر

بَصيرة الضباب الأعمى

حيدر يونس

تجرد

تمشي في الليلِ وحيدًا
تبحثُ عن بيتك,
عن عمرك
عن قبّعةٍ تحميك فجاجة وهمك
تحس بعينيها تنظرُ لك
تَرقبُ نَبضَ وريدك، تتحسسها .. تتماهى في أدراكك
أنتَ الآن وإياها نَبضٌ واحد، بكاءٌ واحد،
كأنكَ تفقدُ غيابها
أقدامك تفقدُ خفتها,
وتَرتَجِّفُ ..
تتسمرُ مذهولاً مرعوبا
تُكلّمُها في نفسك، تسألها: أعُدتِ يا تعْب عراقي, أعدتِ يا صُبح بلائي ؟
يا خيط ضياعي, وبلسم جرح العمر, يا مِلح جراحي ؟
يمتلئُ الليلُ المعتم بالدمعِ,
بالغربة والخوفْ

فأنتَ ..

ترى عينيها في رأسك

تسمع شخط أظافرها في صدرك

ترفعُ أقدامك عن وجه الشارع

وتُلبسُ أطرافك شوقًا ملتظْ

وتمشي ..

أنتَ الآن غريبٌ كنبي

تبحثُ عنها فيك وفي الشارع، عن ثغرٍ اعتادت روحك تسمعُ منهُ النجوى، عن اضواء البيتِ الاول في البصرة، عن قصصٍ نائمة تَحت سلالمهُ ، عن مقهىً يبعد عنك مسافة مالٍ في جيبٍ خالْ، عن حجرٍ تعثرُ بهْ .. علّ الأرض تقولُ أنا أمك، علّهْا تحضن قلبك .. علّك تضحكُ ثم تنام، تبحثُ عن أكداسِ النومِ الفائتِ، عن رايات السهرِ السامق في تكوينك، ترجوا تمزيق الرايات، عن حلمكَ في منصب, في أحدى المكتبات, تجلس في كرسيٍ يهتزُّ، ينوط بجسمك، كأوراقِ الأشجار الراقصة في غنوة ريحٍ، تبيعُ عناوين الكتب المنسية، في مكتبةٍ قرب نوافذ عينيها

تعبرُ شباك الأحلام, وشباك الأيام, وشباك الأعوام

ترجو من تيهك أن يلهمك تكتب شعرًا

لكنك تمشي عجلانًا لا تعرفُ أينْ

فعينيها ترقب روحك من بطن عيونك

حياتك تُسرعُ,

عمرك يسرعُ

موتك يرنو مبتهجًا نحو عروجك .. ويسرعُ

ألى مَ ستمشي,

الى مَ ستركض كعداءٍ أعرج

لكنك تخشى أن تضع أقدامك فوق الأرض

تمسح أصبعك الأكبر, وتمشي متئدًا فوقهْ ..

تخشى أن يستيقظ عقلكْ، ويزأر في وجهك، وفي وجه الشوق ويسخرُ من حالك هذه

في رنة كأسٍ, أو دمعة عرسٍ

لا تعرفُ أيَّ زنادٍ تضغط

زناد الدمع ؟

زناد الشعر ؟

زناد العقلِ ؟

زناد الـ ..

في الليل تبور الأزناد

وينطفئُ السؤالُ : من أنا، من هيَ، من نَحنُ، ولماذا تُمحى نفسي ويحضرُ فيَّ حضور الغائب ؟

في الليل .. لا يبقى غيرُ الفكر يحوم كخفاشٍ سكران

حول الجنة والنار .. وعينيها

خَفق اللحظة

(١)

أنا هُنا ..
خيطٌ من الصمت
يمّرُ تَحتَ أقدامِ النمل
أخّفَّ من خيالٍ تائه
أو عشبةٍ تَصفعُها الريح
أنا هُنا ..
مرآة في الظُلمة
لا تعكسُ إلّا صَمتَ الأشياء
وصوت الذاكرة .

(٢)

في الشوارعِ ..

يتحدثُ الناسُ عن الحرية

ويغلقون السماء بِأدخِنّةٍ لغوية

في السماء ..

-واللحظة تُطبقُ فكّها على عَبثِ الماضي والآتي-

أرى كلامهم يطيرُ بلا أجنحة

مُتخذًا شكل الدخان

قلتُ : الأرضُ تُعاني من ثرثرة الحرية

من عراء الحرية

الحرية في الصمت

كفّوا عن غلق السماء

فالطائرُ بلا حرية

(٣)

هل سأُقبّلُ ثغر حبيبتي ذات مساء

هل سأرى في كفّيها عمري مُنكفئٌ دون حِراك

هل سـ ..

في زُرقة النهرِ

تطفوا المناديلُ الباكية

كأن على رأسها الدمع وطعم الدم

المناديلُ الباكية

تُشبهُ السكين

قال النهر : الحبُّ يذبحه منديلٌ باكي

في ذاتِ اللحظة .. عَرفتُ

إني لن أُقبّل ثغر حبيبتي ذات مساء ولا ذات أبد

قد وجدتُ أثر السكين على عينيَّ وقلبي

قد ذبحني المنديل .

(٤)

في الحب الضائع

في السرير الذي يموج تحت الزمن

في الوقتُ الذي يتهاوى في حفرة المصير

في اللحظة المشتتة

هُناكَ صبرٌ لا يزال يتصدع

لا يزال يكبرُ كلما جاء صيف

ومرَّ شتاء

كأنهُ الطفولة التي لن تبارح الوجود .

الريحُ تَقطعُ الفلوات

تمرُّ بخصلات شعري

وذيلِ حجابها

في اللحظة المرمية في لُعبة الممكن والمستحيل

تُفكرُ ..

الريحُ تجمعكما والصمتُ ورائحة المصير

وبعضٌ من خَفقِ اللحظة الجارية .

أبـتسامة

إبتسامةٌ تنوي الخروج

صفعةٌ من الضجةِ تردم بابها

وتُقفله ..

أبتسامةٌ شاهقة

تسقطُ في الليالي المنخورة

تسقطُ في وهادِ الذاكرة

وتضيع ..

أبتسامةٌ كانت تنوي الخروج

تنوي الهزل، ردمها سيلُ من الضجيج

أحالها صمتٌ عَبوس

أيها المتسوق الخاسر

لا تبتسم بملئ فمك المتلذذ المرتعش

أنتَ في سوق الخاسرين

إمامُك الصالحُ هكذا قال

إبتسامةٌ تنوي الخروج

إصفعها بآهاتك التي من هجير

وأفلتها في رداء الموت المهدّل

في أمتداد الإختباء

خبّىء ثغرك في النهرِ الذي بين حديقتها

إبتسم هُناك بكل شراييناك الناضجة

وأبدأ الهزل المطرزَ بالذهول

حيثُ جيفارا يُصالحُ الإيمان

ومظفرٌ .. نزع أجنحته

وحطَّ رحالهُ تَحت عباءة أمه

هُناكَ حيثُ ينكسر النور في دهليز اللذة

ويُصبحُ الزمن بُخارًا يمتطي صهوة البُراق

مُخترقًا جوف الفناء

في أمتداد الإختباء

إبتسم في وجه النهر

في سُمرة الوجوه المُنطفئة

في الصوتِ الذي يجيء عاريًا من الطفولة

في الريح التي مرت بثغر حبيبتك

في الظُلمة وأمثالها فقط

دع ثغرك يربحُ في سوق الخاسرين

حديثٌ مع ريشة غراب

انهُ الأنتظارُ المصلوب على خشبة الأمل
يرتجفُ .. كرسالة وداع
انه اللهيبُ الذي كان وانتهى
يعاود نفسهُ .. كولادةٍ مبتورة
انها الشمسُ الأبدية
تجري وتتكسرُ في دمي
أنها الصناديقُ السود المتوحشة
تخرجُ من حضارات الخوف
من ازيز الحروب الرابضة فوق الأبد
من الدمعِ المثخنِ بالغياب
انهُ المكان .. لا
انهُ صوتُ المكان
ذلك البُعد الذي يسري فقط داخل بلادٍ مبعثرة، وفي قلبين تجمعهما شفّةً واحدة، شفّةً مُرتبكة، تبني المكان بالكلمات، وتشيد الأسطورة في الأثير الذي يحاوط المكان، تلك المشاعرُ المحتشدة، ارها في المكان، جثّةٌ يابسة، محاطةٌ بالكلمات والاصفرار
أنها فيروز
تضربُ الصولجان في قعر البئر
فينتفضُ الماء كالرصاص
ينتفضُ الشجرُ طاردًا عصافير فمي وفهما
أسمعُ من بعيد
صوتٌ يرنُ في صدى عمري المتآكل
ماذا ؟

أماتت الريح ؟
أقامَ المسيح ؟
لا .. أنهُ غيابكِ
يصرخ ويضربُ في عمق الزمان
ايُّ زمان ؟
انهُ الزمان الذي يدير دفة الولادة نحوُ الموت ويرفعُ شراع العمر في سماء غيابكِ
انني ارى من ثقبِ الباب عينْ
تُطالعُ الذي ظلَّ منكِ هنا
إنها عينُ الحيكم
قال إنكَ مريض
ألقِ عن ظهركَ المحدودب صرّة الذكريات
ودعَّ عنك الأيمان بزيفِ المجيء
إنها عين الحكيم
تريد سرقة ما تبقّى منكِ
ولكن .. وماذا تبقى ؟
غير ظلٍّ يأبى أن ينام
ووهم عيناكِ الحزينات
والتناقضات التي تمزقُ نسيج الشوق
والسؤال
من يحمل عني ثقل وجودكِ المهول
وجودكِ في هذاا لعالمُ المطوقُ بالخراب
آهٍ
إنهُ الخدرُ الذي يجعل الظلام سعيدًا
إنهُ البكاء الذي يشبهُ الغطسَ تحتَ ثيابكِ
انها الطفولة اللاهثة وراء الشباب
انهُ اسمي الذي يناديني كلما أخطأتُ بهْ
أنها العينين التي أحرقت مصيري
.وكورت في حدقتّيَّ الأحزان

تـوسلٌ بـالحمامة

أيتُّها الحمامةْ ..

إتركي الحَومَ على كل دارْ

واذهبي لحبيبتي

في دارها .. تلتحفُ الخيبة والغطاء

سكرانةَ الجسد ..

اتوسلكِ ..

أن تحملي الندى الباقي من شفتيّها

على كأسها الشفاف

وتنفضيه من ريشكِ

على طفلِ حنيني

عسى أن يهدأ القلبَ الرميضْ

اتوسلكِ ..

أيتها الحمامة

أن تلمي بقايا دمعها من كل مكان

وتسكبيهِ في فمي

عسى أن تُعانقَ روحي حزنها

في طعمِ البكاء،

اتوسلكِ ..

يا حارسة الأنبياءْ

أن تنظري في عينيها السوداوينِ مليّاً

في آخر الضوء

في خفقِ الجفون

في رهاوة الدماء

ستجديني يا حمامة ..

أنتظركِ مِلئ يداي احتراقاً

وحنيناً

ورجاءْ

رفض

تائهًا أَرفضُ الطرقات وبلادي

أرفضُ الليل المؤبد والسنين

والصيف الحزين

قطعتُ انفاسي عن هواءٍ تنفسهُ الأغنياء

وتعلقتُ بأستارِ الكعبة السوداء

عاريًا ..

أُنادي رافضًا

أُنادي ..

هاك جسدي يا رب الاغنياء

امدّه كعشبة في الهواء

إمسح عن كبدي اللظى

وعن وجهي العَبوس

أشلاء الفِرار

خرجتُ من جوهرة الحزن

قبل عشرين عام

رافضًا تعقد هذا العالم

رافعًا عجزي في الخواء

مرتديًا رفضي كبكاء

وكان عزائي ..

أغنيةٌ .. وعينيها .. وسماء

أيها الباكي المتوحد في المدينة

أنتَ حقًا في المدينة

لكنك بِت رافضًا لشوارعها

لأرصفتها

لمساءاتها

لجوامعها

للقمرِ المتفرج من فوقها

وتناغي كاس السكينة

ها انت يا كتلة رفضٍ

ساكنٌ في الفلاة

وانت في وسط المدينة

ها أنتَ يا كتلة رفضٍ

أمسكت رفضك من قرنيه

وطرحتهُ ارضًا

وقبِلت كل شيءٍ

لحظة أن رأيتها مقبلة نحوك

رافضة بعدك .

نـوافذٌ لرؤيتـها

في الحُلمِ

أراكِ ..

تجلسين ساكنة

تهزين قلبي المضطرب

فينامُ

فوق عودِ البخور

أرى خيالكِ

يصعد مع عطر الدخان

فيمتلئ عمري بالشهقات

افتحُ كتاب

فألحظكِ

بين ثنايا الكلمات

فأقرأكِ ..

منذُ ثلاث أشهرٍ

أُقلّبُ الصفحات

ولم أنتهِ بعد

اليوم فتحتُ عيناي على كذبة

قالو في التلفاز

ان العالم بدأ في السقوط

أخرجتُ صورتكِ

أمعنتُ فيها

رأيتُكِ تشعين جمالًا وغضاضة

فقلتُ : أذًا كيف سيسقط العالم

وصورتكِ فيه ؟

أنا أبنُ الجنوب

ديني الحزن

وشعاري الخبز

وأمي النخلة

وأبي الشمس

وأرثي الشِعر

وكل ما قد ذكرت

غاب أمام وجهكِ

أتملكين وجهًا

أم وطنًا لي وهوية ؟

الموسيقى تتكلمُ

بما لا يدركهُ فاه الأنسان

فاهي لا يُدرك وصف حقيقتكِ

هل أنتِ موسيقى

ام جنيّة ؟

قَلَب

مرتديًا سوادي

ابحثُ عن قبرٍ أرتديه

أو عن قلب يرتديني

لا أدري فالأثنانُ سواء

ذاتَ نهارٍ

أعياني الجوع

فقررت أن أعرض أغارضي للبيع

لأجل أن آكل

لأجل أن احيا

عرضتُ قلبي الذي لا أملك غيره

وبقيتُ أصيح : قلبًا للبيع ..

قلبًا للجرح ..

قلبًا يصلحُ للحسرة دون ضرر ..

أنتبهتُ لفراغ الشارع

قد حلَّ الليلُ

لم يشترهِ أحد

وسرقوه

فمِتُ جوعًا دون قلب

يا قلبي

يا صغيري المُتعب

نَمِ الآن

فإنك ستتعبُ أكثر

لو طالت بك اليقظة

الشوق يستيقظ

شوقٌ، يَفتحُ أغطية الماضي وينتفضُ
في قلبي تهتاجُ الذِكرى
هذي المرة ..
لكلِّ مكانٍ شهد اللُقيا والقُربى
لكلِّ صباحٍ قبَّل خدينا، ولثمنا ببهاء طلوعه
قُلتُ : ما دامت نحوكِ قد سُدّت كل الأيام
و الشوارعُ مغلقة بالأصفاد
وبابُكِ نبتت فوق روازينهُ أشواكَ العاقول
وعناكب ليلٍ حطتْ في قفل الباب
ونسجت آلاف خيوط
سأحملُني كالتمثال الصامت
لأماكننا الأولى
لمهدِ الصباحات الكربلائية
وضجيج الزائرين
حين نعبرُ نحو بعضنا

من تحتِ الجسرِ الباسم للقبة الصفراء

سأحملُني
حيثُ النظرة الأولى لمرايا وجهكِ
وأحاديثُ الشجر الكالبتوس
الذي كان يغمرنا بالألفة

ها هُنا، العشب الذي أحتضن قدماكِ
قد إصّفر
ومرمرة الحديقة الكبيرة
التي كانت تحملنا كبساط علاء الدين
قد صارت مرمرة عرجاء
يحاصرها الموتُ والبكاء

جدارية الجامعة ..
قد ذبلت كجلدِ عجوز
كلما نظرت لها، بكينا أنفسنا، والتاعت في كبدينا اللوعة
قِبالها، انفثُ قبضة هواءٍ
وأُرددُ شعر الگاطع (انتهينا وانتها الما ينتهي وخلص حچينا)

نهر العلقمي

لم يكن يعرفها شكًلا

حين أمرُ عليه عائدًا

أفتح قلبي له

وأكلمهُ عن وجدي فيها وشدة ولهي

فكان يغمر روحي بالنسمات

ويقاسمني أفراح مواعيدي

أما الآن

أمرُ على النهر

فلا يعرفني

لا اسمع من أمواجه غير الصمت ونيران الغربة

وحيدًا اعبر أماكننا الأولى

أذ لا يعرفني

لا نهرٌ

لا شارعٌ

لا حجرٌ

ولا الجسر الباسم للقبة

لا أحد يعرفني غير الموت ورماد الشوق

لكلِ الأماكن التي صاحبتنا

عطر الغربة والبكاء

لكل الأماكن التي عرفناها وعرفتنا

طعمُ الوحشة والخواء

ولأبدية الأشياء

ذاكرتي ..

ستضل الذكرى

تعرف كل الأشياء

تعرفها ..

اكثر من شكل النسيان

أغنية الصيف

في وَقدةِ الظهيرةْ
أسيرُ ..
وعَيني لا تُحصي غير اللافتات
والماء المهدور على الأرض
ومحطات المنتظرين
تَلسعُني الحيرة كالشمسْ
كالموسيقى في حَرِ الصيفْ
وأنظرُ محتارًا ليدي
أصابعي تشربُ خمرا
من كاسٍ مريرة
أقولُ : وهل في العُمر أستراحةٌ أخيرةْ
في وقدة الظهيرةْ
أبحثُ عن فيءٍ
عن عيّنيِّهاْ
أُقاسِمُها لسعةً الحُبِ والآهْ

واستِراحةَ النهرِ

يا روحي المُغبرّةْ

هذا الأنتظارُ المرُ لن ينتهيْ

مرَّت عِشرونَ عامًا أنتظرُ القميصَ والذئبْ

لا زرُ القميص جاء، ولا ريحهُ

ولا الذئبُ برر فعلتهُ .

هذه الشوارعُ المُصفرّة لا تكفُ عنِ الولادةْ

لا تكفُ عن حَملِ السرابِ كالمُعجزةْ

أخرجُ من شارعٍ وأدخلُ في آخر

تائهٌ بين الشوارعِ والأغاني والذكرياتْ

وبيتي بعيد .. لا بيت لي حقًا، غير قبرٍ وحبيبة

في وقدةِ السير قلتُ : آهٍ لن أستريحَ لن أصلْ

خُطاي الساعية نحوَ الحُلمِ تائهةٌ

في وسطِ المحلاتِ والأرصفة والخيالْ

ووجهكِ الذي يمسكُ قلبي من قفاهْ

آخرُ ما تبقى لي من دليل

آخر حرياتي المُتخيلة في هذه البلاد .